دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

| | |
|---|---|
| العنوان: | العمارة الإسلامية |
| المصدر: | مجلة كلية اللغات والترجمة |
| الناشر: | جامعة الازهر - كلية اللغات والترجمة |
| المؤلف الرئيسي: | هاشم، سعيد |
| المجلد/العدد: | ع 35 |
| محكمة: | نعم |
| التاريخ الميلادي: | 2004 |
| الصفحات: | 1 - 26 |
| رقم MD: | 221078 |
| نوع المحتوى: | بحوث ومقالات |
| قواعد المعلومات: | AraBase |
| مواضيع: | المدلولات الفنية، الحضارة الإسلامية، الهندسة المعمارية، مكونات الفكر المعماري الإسلامي، التفسير التاريخي، التفسير الآثاري |
| رابط: | http://search.mandumah.com/Record/221078 |

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

# العمـــــــارة الإســـــــــــــلامية

**الدكتور سعيد هاشم**
**أستاذ مساعد**
**جامعة البحرين – كلية الآداب – قسم العلوم الاجتماعية**

**مقدمة:**

العمارة في اللغة هي ما يعمر به المكان، واستعمره في المكان أي جعله يعمره. قال تعالى: " ألا إن عاد كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود"[١] وقال أيضا: "هـو أنشـأكم مـن الأرض واستعمركم فيها".[٢] الآية الأولى تتحدث عن أمتين من قوم عاد، القديمة قوم إرم، والجديدة قوم هود.

وتشير الآية الكريمة الثانية إلى أن الله خلق ادم من التراب وأمره وأبناءه بعمـارة الأرض. وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار وعمروا الأعمـار الطوال على الرغم من تعسفهم واستبدادهم بشعوبهم فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عـن سبب تعميرهم، فأوحى إليه، أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي.[٣] وعن معاوية بن أبي سفيان أنه عمل على إحياء الأرض بالزراعة وتشييد القصور في آخر عهده وحينما سـؤل عن سر ذلك الاهتمام أجاب: "ما حملني عليه إلا قول القائل:

ليس الفتى بفتى لا يستضاء بـه ولا تكون له في الأرض آثار[٤]

والعمارة أو العمران يعني البنيان وهو نقيض الخراب وفن العمارة هو فـن تشـييد المباني على اختلاف أشكالها وأغراضها سواء كانت سكنية، عبادية، صناعية وفق قواعـد محددة. والمختص بفن العمارة هو المهندس المعماري الذي يمارس مهنـة العمـارة. ولا يقتصر العمران على البناء إنما يتعداه ليشمل كل المشاريع لاتنموية كاسـتثمار الثـروات الطبيعية من زراعية، معدنية، سمكية وحيوانية، وكلها تهدف إلى إعمار الأرض وتحقيـق الرفاهية للإنسان سيد المخلوقات وخليفة الله في أرضه. ويقال بأن العدل أساس العمـران وعلم العمران عند ابن خلدون هو علم الاجتماع. والعمارة هي حاجة من حاجات الإنسـان الضرورية ودلالة على العبرة من وجوده فهو يعمر لنفسه لاستغلال هذه المنجزات خـلال حياته مثلا كالمعابد والمساكن ودور الترفيه وللأجيال المتعاقبة لأنه يعلم علم اليقـين أنـه راحل عن هذه الدنيا لا محالة لقول الشاعر:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلةٍ حدباء محمول

فالتزام الإنسان بالعمارة يتمشى مع قول الإمام علي: "إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، وإعمل لآخرتك كأنك تموت غدا"

والهدف من هذه الدراسة هو التعريف بمكانة العمارة في الفكر الإسلامي وذلك بإبراز عناصرها الفكرية والإجتماعية والفنية وبإلقاء الضوء على العوامل التي ساهمت في تشكيلها. لما كانت العمارة عبارة عن ظاهرة حضارية معنية بفن إنشاء المباني وتعدد استعمالاتها فقد عرَّف ابن خلدون صناعة البناء بأنها: "أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى"[٥] ولقد تنوعت وتباينت استعمالات العمارة وتقنيتها بتقدم الحضارة الإنسانية وتطورها.

والعمارة الإسلامية ظاهرة فريدة من نوعها، متميزة في تقنيتها وأدائها، خضعت في نشأتها وتطورها للفكر الإسلامي ولأحداث التاريخ، ولظروف البيئة الإجتماعية والجغرافية. وهي ليست فنا شعبيا عرقيا، بل هي إفراز فكري حضاري، أفرزه الدين الإسلامي وتبنته مجموعة من الشعوب المتباينة النشأة البيئية، والتكوين العرقي، والرصيد التقني، حيث وحد الإسلام تفكيرها وعاداتها وقيمها وسلوكها، ووظفها لتحقيق ظواهره الحضارية، وعلى الأخص الظاهرة المعمارية[٦] لقوله تعالى:"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[٧]

وسيحاول الباحث عرض المفاهيم المعمارية. كما تناولها القرآن الكريم والفقهاء والعلماء المسلمون، مبتدئين بالقرآن الكريم:

١- <u>العمران البيئي وهو مرحلة إعمار الأرض:</u>

العمران البيئي الشامل هو إعمار الأرض وقد تم على مرحلتين:

أ- الأولى وهي استخلاف آدم عليه السلام في الأرض، كما في قوله تعالى:"وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة"[٨] وكذلك في قوله تعالى:"وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين"[٩] ويعتبر استخلاف آدم مرحلة اكتمال عمران الأرض، لأن الآيات السابقة توضح خلقها بما تحويه من عناصر بيئية ضرورية لحياة الإنسان كالماء والهواء والحيوان والنبات والبحار بثرواتها وكل ذلك قد سبق استخلاف آدم.

ب- الثانية إعادة بداية إعمار الأرض التي تمت بعد حدوث الطوفان.[١٠] حيث استخلف الله سيدنا نوح وبعض من ذريته كاستمرارية لنسل آدم إضافة إلى عنصر الحيوان والطير التي اصطحبها نوح معه في السفينة للإبقاء على التوازن البيئي على الأرض.[١١]

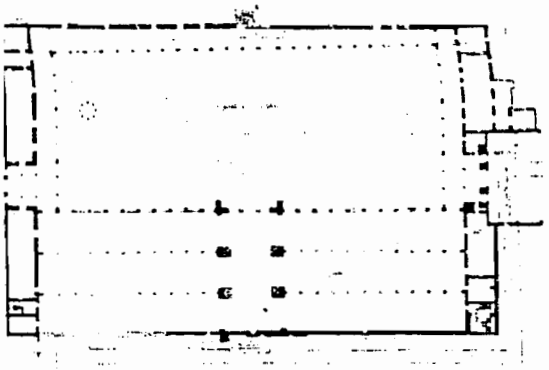

مخطط الجامع الكبير في دمشق

٢- **العمران الاجتماعي الخاص وهو مرحلة الاستقرار البشري بعد الطوفان وما صاحبه من ظهور الحضارات الانسانية:**

أما العمران الإجتماعي الخاص، فقد كان نتاج الأقوام[١٢] التي تناسلت من ذرية سيدنا نوح (ع)، حيث أن كل قوم من هذه الأقوام استقر في منطقة جغرافية معينة، وتفاعل مع عناصرها البيئية وشكل حضارة خاصة، كان لكل منها انجازاتها المعمارية المميزة. وكانت الحضارة الإسلامية إحدى هذه الحضارات لها إفرازها المعماري الخاص الذي تميز عن غيره من الإنجازات المعمارية لكونه وليد الفكر الإسلامي ولتنوع وغناء رصيده التقني.

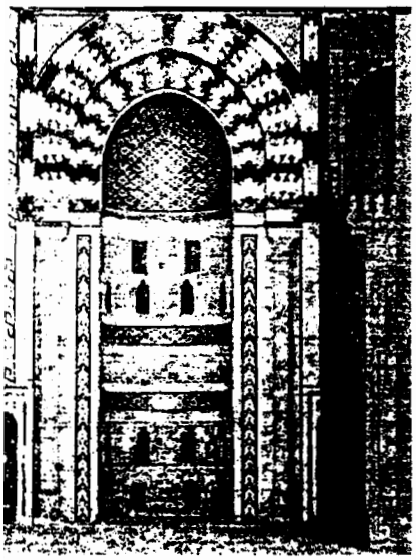

مخطط الجامع الكبير في دمشق

٣- **العمارة كظاهرة حضارية اقتضتها ضرورة الاجتماع:**

لقد تناول القرآن الكريم هذه الظاهرة الحضارية فتعامل معها كمدرسة فكرية، فوضح عناصر فكرها، وأرسى مبادىء ممارستها وتقنيتها ويعتبر العرض القرآني لبعض الإنجازات المعمارية لبعض الحضارات الإنسانية السابقة للإسلام كحضارة العرب البائدة والعرب العاربة وبعض الحضارات العربية السامية[١٣] في بلاد ما بين النهرين وغيرها مصدر إلهام للباحث، حيث استخدمت النصوص القرآنية أسلوب التوثيق التاريخي والمقابلات الأثرية وتقنية الوصف. أما مبادئ وتقنية ممارستها فقد عرض القرآن الكريم لطبيعة العلاقات الاجتماعية في الأسرة المسلمة وعلاقة هذه الأسرة بغيرها من الأسر. فحدد بذلك مبادئ النظام الاجتماعي للمجتمع المسلم. فتناولها الفقهاء والمفكرون المسلمون بالشرح والتحليل وترجمها البناؤون والمعماريون إلى فراغات وأشكال معمارية.

وسيتناول الباحث فيما يلي من دراسة مناقشة وتحليل العناصر التي شكلت فكر هذه الظاهرة.

**الفكر المعماري:**

يتكون الفكر المعماري الإسلامي من ثلاثة عناصر فكرية:

أولا: الفكر الاستدلالي:

يهتم هذه العنصر بدراسة المنجزات المعمارية للحضارات المنقرضة، بهدف معرفة تاريخها المعماري وكتابته وكذلك يهتم بتسجيل الإنجازات المعمارية للحضارات المعاصرة وتوثيقها للهدف عينه. وتطلب دراسة الظاهرة الحضارية المعمارية للحضارات المنقرضة استخدام علمي التاريخ والآثار لتفسير هذه المنجزات أو الظاهرة. أما توثيق الظاهرة الحضارية المعمارية المعاصرة والمستمرة كالعمارة الإسلامية، فيتطلب علم التاريخ فقط. لأن علم الآثار لا يصلح لدراسة وتفسير الإنجازات المعمارية الموثقة تاريخيا كالعمارة الإسلامية.وفيما يلي سيعرض الباحث دراسة وتحليل استخدام كل من التفسيرين:

١- التفسير التاريخى ٢- التفسير الآثاري

## ١- التفسير التاريخي واستخداماته:

الهدف من التفسير التاريخي هو تحديد البداية الزمنية للظاهرة الحضارية المعمارية وذلك لتأصيلها ورصد تطورها ودراسة علاقاتها بعمارة الحضارات الأخرى. وتفسير التاريخ إما أن يكون عاما يقتصر على عملية التوثيق، تاركا الدراسات التفصيلية للتفسير الأثري كما هو الحال في دراسة الحضارات المنقرضة، أو أن يكون خاصا وعاما في آن واحد فيشمل التوثيق والدراسات التفصيلية فيوثق الفكرة ويتتبع تطورها ويفسر كيفية تطبيقها. ولقد تعرفنا على هذا التفسير بجانبيه من القرآن الكريم كما في قوله تعالى: "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا"[١٤] كما كان عليه الحال في مدينة البتراء عاصمة دولة الأنباط شرقي الأردن. ففي هذه الآية استعمل القرآن الكريم التسلسل الزمني لنشأة الحضارة. ولقد صحب هذا التسلسل توثيق الإنجازات المعمارية لحضارة ثمود.[١٥]

وهذا النوع من التوثيق، ربما يكون كافيا للحضارات التي استقلت جغرافيا وزمنيا. أما الحضارات التي تعاقبت أو تزامنت في الوجود، فهي بحاجة إلى دقة في التوثيق و مزيد من التوضيح والتحليل، وذلك لمعرفة إنجاز كل حضارة من هذه الحضارات. و تبرز دقة التوثيق هذه في قوله تعالى : "وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم و تبين لكم كيف فعلنا بهم و ضربنا لكم الأمثال "[١٦] فالاية توضح تعاقبا حضاريا على المكان نفسه، إلا أن دقة التوثيق القراني أوضحت أن الإنجاز المعماري المتمثل في المساكن هو من إنجاز الحضارة الأولى و هي حضارة ثمود. هذه الدقة في التوثيق القراني تساعد في دراسة تأثير عمارة الحضارات السابقة على عمارة الحضارات اللاحقة.

أما التزامن التاريخي للحضارات و تأثير عمارة على أخرى معاصرة لها، فيظهر في تأثير عمارة اليمن على هيكل سليمان كما ورد في قوله تعالى : "وجئتك من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأووتيت من كل شيء ولها عرش عظيم "[١٧] وكذلك في قوله تعالى: " قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين "[١٨]

والواقع أن التوثيق التاريخي لعمارة هيكل سليمان لم يقتصر على توضيح تأثير العمارة اليمنية بل تجاوزه ليبين لنا أن الهيكل لم يكتمل بناؤه. فقد بين لنا النص القرآني هروب الجن وتركهم العمل في الهيكل عندما علموا بموت سليمان لقوله تعالى: " فلما

قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين "[١٩]
فلو كان الهيكل مكتملا لما بقى الجن يعملون في بنائه أثناء موت سليمان. [٢٠] وبهذا يتضح دور التوثيق في التفسير التاريخي لعمارة الحضارات المنقرضة، مما يبرهن ويؤكد على أن الدور الذي لعبته النصوص القرآنية في عملية التوثيق كان عاما، تاركا التفاصيل والجزئيات للمختصين من العلماء المسلمين.

أما التفسير التاريخي الخاص فهو المقتصر على تحديد النداية الزمنية لعمارة معينة كما هو عليه الحال في العمارة الإسلامية. وقد حدد لنا القرآن الكريم بدايتين للعمارة الإسلامية هما :

١- بداية العمارة الحنفية الإسلامية[٢١] كما في قوله تعالى :
" ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم "[٢٢]
وأيضا في قوله تعالى : " إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا و هدى للعالمين "[٢٣]
وقد كان لهذه العمارة قدسية و تأثير واضح على العمارة الدينية في الجزيرة العربية فغالبية المباني الدينية التي بنيت بعد الكعبة اتخذت شكلا مكعبا : ككعبة نجران[٢٤] وكنيسة القليس[٢٥] وكعبة (كعبات) سنداد. [٢٦]

٢- بداية العمارة الإسلامية التي تزامنت مع الدعوة الإسلامية على يدي سيدنا محمد (ص) ، والتفسير التاريخي لهذه المرحلة يدخل في اختصاص المؤرخين المسلمين فأصبح التفسير التاريخي خاصا، إذ أصبح لكل صرح معماري بتاريخه الخاص كتاريخ المسجد الحرام[٢٧] وتاريخ المسجد النبوي[٢٨] ، وتاريخ المسجد الأقصى[٢٩] و غيرها من المنجزات المعمارية كالقصور والمدارس والمستشفيات والحمامات وغير ذلك. ولقد اعتمد المؤرخون المسلمون في تاريخهم لهذه المباني أسلوبا شاملا إذ حددوا صاحب البناء والمشرفين على تصميمه وبنائه ومساحته وارتفاعه وعدد أعمدته وعقوده وفتحاته وأبوابه وشبابيكه ومواد بنائه ومصدرها ومدة بنائه وتكاليفه. كما وصفوا شكله وطبيعة المواد المستعملة. فلم يتركوا صغيرة أو كبيرة إلا ذكروها. وبهذا يكون العلماء المسلمون قد وضعوا أساسا لكتابة تاريخ العمارة وحددوا أسسها وعناصرها.

و الواقع أن اهتمامهم قد تجاوز الإنجازات المعمارية الإسلامية إلى غيرها من الإنجازات المعمارية فاهتموا بالعمارة المسيحية في ديار المسلمين حيث أن دولة الإسلام

منذ عهد المؤسس الأول تعايشت فيها ثلاث ديانات سماوية هي اليهودية والمسيحية والإسلامية وتلك تجربة فريدة في التاريخ الإنساني. هذا إضافة للإهتمام بالإنجازات المعمارية للحضارات الإنسانية القديمة كالحضارة الفرعونية. وهذا الاهتمام يدخل في حقل الدراسات الأثرية التي ستكون موضع دراسة لدورها الفعال، وللكيفية التي وظف فيها القرآن الكريم والعلماء المسلمين هذا الدور في الدراسات المعمارية.

## ٢- التفسير الآثاري و استخداماته :

منذنة جامع حيرات الكبير - أفغانستان

التفسير الأثاري هو توظيف علم الاثار في دراسة الحضارات المنقرضة وعلم الاثبار هو العلم الخاص بدراسة بقايا هذه الحضارات وذلك للوقوف على تاريخ هذه الشعوب والتعرف على طرق معيشتها وتفكيرها وكيفية تفاعلها مع البيئة. ومن هنا كانت دراسة الآثار تشمل جميع أسباب الحياة اليومية للحضارات المنقرضة، وما خلفته من منشآت معمارية كالمساكن والهياكل والحصون والقلاع والنقوش وشواهد القبور. والتفسير الاثاري له دوران في الدراسات المعمارية : دور ثانوي ودور أساسي ، فإذا كانت الأعمال المعمارية موثقة وموصوفة كان دور التفسير الأثاري دورا ثانويا، أما إذا إنعدم التوثيق التاريخي كان التفسير الاثاري أساسيا لأن الغرض من التفسير الأثاري هو التوثيق التاريخي للأثر المعماري في نهاية المطاف . ويعتبر الشعر الجاهلي خصوصا المعلقات السبع والقرآن الكريم مصدرين أوليين لتقنية التوثيق الأثري.

ولقد تناول القرآن الكريم علم الآثار من وجهة نظر فلسفة، فربط بين علم الآثار وبين فلسفة التاريخ الإسلامي والمعماري منه بصفة خاصة. وتوسع بعلم الآثار والتوثيق الأثري فخرج به خغرافيا وحضازيا عن نطاق الجزيرة العربية. ونهج القرآن الكريم في تفسيره للآثار منهجين:

١- فلسفي، اعتمد فيه فلسفةالتفكير والتأمل، فأطلق للخيال حرية تصور الأثر وتحديد عظمته كما في قوله تعالى:"ألم تر كيف فعل ربك بعاد، ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد.."(٣٠)

٢- تقني، اعتمد فيه تقنية التوثيق الأثري، فحدد هوية أصحاب الأثر وهوية االأثر واستعمالاته وزمن بنائه، ومكان الأثر ومواد البناء وتقنيته، والمؤثرات البيئية كما بين لنا أسلوب الاستقصاء الأثري وتتضح جميع هذه العناصر في قوله تعالى: "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا..." (٣١) وكذلك في قوله تعالى: " إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين "(٣٢) ففي كلتا الآيتين نجد أن القرآن الكريم قد ربط بين العامل البشري والأثر المعماري والمكان، كماأدخل عنصر الزمان في عملية التوثيق الأثري. أما هوية باني الأثر المعماري وتقنية بنائه فنجدها في الآية الكريمة: "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل..." . (٣٣) أما المؤثرات البيئية فنجدها في قوله تعالى:"فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيه عذاب أليم، تُدَمِر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين"(٣٤) .

هذه الأمثلة المحددة من النصوص القرآنية العبرة فيها التنويه بالمفاهيم التي أرساها القران الكريم لدراسة العمارة. ولقد توسع العلماء المسلمون في هذه المفاهيم فأعدوا لها مؤلفات عديدة يمكن الإشارة إلى بعضها لإبراز الدور الذي احتلته الدراسات المعمارية في الفكر الإسلامي.

برز الاهتمام بالإنجازات المعمارية غير الإسلامية منذ بدء الإسلام ، إلا أن الكتابة عن هذه الإنجازات لم تبدأ إلا في العصر العباسي فالأديرة النصرانية في ديار الإسلام حظيت باثني عشر مؤلفا.(٣٥) ذكرت فيها مواقع الأديرة، وحددت أجزاؤها ووصفت أشكالها وذكرت أسماء بناتها كما أشير إلى مواد بنائها وتقنيتها . وأكثر من ذلك فإن كتاب الأديرة النصرانية للشابشتي كان مصورا ومزوقا. (٣٦) كما حظيت المباني الدينية اليونانية والرومانية والفارسية باهتمام العلماء المسلمين فجمع أخبارها أبو معشر المنجم في كتاب أسماء الألوف(٣٧) الذي اختصره أبن الملزيار في كتاب أسماه "منتخب الألوف" وقد نقل عنهما المسعودي في الجزء الثاني من كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" فذكر البيوت المعظمة عند اليونانيين والروم والصقالبة والصائبة "وبيوت النيران" الفارسية فذكر أسماءها وأماكنها ومواد بنائها وحدد استعمالاتها ووصف شكلها وعناصرها المعمارية.

أما الآثار الفرعونية فقد حظيت بنصيب وافر من الاهتمام فأفرد بها أكثر من كتاب منها كتاب "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" ، لعبد اللطيف بن يوسف البغدادي، وكتاب "البيان و الأعراب عما بأرض مصر من الأعراب "للمقريزي، وكتاب "عجائب الدين لإبن وصيف، وكتاب تحفة الألباب" للغرناطي، وغيرها من كتب الرحلات والجغرافيا والتاريخ. على أن أهم هذه الكتب وأكثرها قيمة علمية هو كتاب البغدادي[٣٨] لما يتضمنه من وصف شامل للأهرام وبنائها ومحتوياتها وتقنياتها ومحاولته قراءة الكتابات الهيروغليفية وأنه لم يجد في مصر من يعرف قراءتها. ثم استطرد في عرضه للآثار المصرية فذكر المسلات والمدافن والمعابد.

ومما يجدر ذكره أن الكتابات الأثرية التي مر ذكرها لم تول النقوش والكتابات التي كانت تزين واجهات المباني الأثرية كبير اهتمام . فلم تلعب الكتابات والنقوش دورا في عملية التفسير الأثري البيروني[٣٩] ومحاولاته في دراسة حضارة الهند، والهمداني[٤٠] في دراسة للحضارة اليمنية. وأفرد لها الجزء الثامن من كتابة "الإكليل" كما أفرد الجزء التاسع من نفس الكتاب للنقوش والكتابات الحميرية الموجودة على الآثار فترجمها إلى اللغة العربية العدنانية ووظفها في كتابة تاريخ اليمن الحضاري والمعماري منه بصفة خاصة.وبهذا تكون محاولة الهمداني أنضج الدارسات الأثرية التي استعملت في تفسير الظاهرة الحضارية المعمارية ودراستها.

٣- <u>الفكر الارشادي والتطبيقي</u> :

سيقوم الباحث من خلال هذا المحور أو العنصر بمناقشة دور الدين الإسلامي وما أفرزه من علاقات اجتماعية ومفاهيم فنية وانعكاسه على العمارة بشتى أغراضها ووظائفها .

الدين الإسلامي في أبسط صوره: نظام فكري وأسلوب حياة، أو هو منظومة من الأفكار والقيم والمشاعر التي تنظم علاقة الإنسان بخالقه وأفراد أسرته ومجتمعه وترسم حقوق وواجبات الفرد في مجتمعه وعلاقته بالكون من حوله، كما ترسم علاقةالمجتمع الإسلامي بغيره من المجتمعات الإنسانية. ولقد أفرزت علاقة الإنسان بخالقه عمارة المساجد، وأفرزت علاقة الإنسان بمجتمعه أنماطا متعددة من العمارة كالمساكن، والأسواق، والحمامات والمدارس والمستشفيات (البيمارستات) والفنادق.أما علاقة المجتمع الإسلامي بغيره من المجتمعات فقد أفرز عمارة الحصون والأربطة .

وفيما يلي سيتم عرض بعض هذه الإفرازات المعمارية ومبررات إعمارها لتحقق متطلبات محددة منها :

المتطلبات العبادية (إقامة الصلوات) : إن ضرورة العبادة حتمت وجود مكان مخصص للصلاة فيه. فكان بناء المسجد النبوي في المدينة المنورة تطبيقا وترجمة عملية لهذه الحاجة الملحة ونموذجا يحتذى. والواقع أن المسجد النبوي كان يؤدي أكثر من وظيفة. [٤١] فهو مكان للعبادة إلى جانب كونه دار للقضاء، ودار للحكم، ومدرسة للمسلمين ومأوى مؤقتا للغرباء. ولقد حقق البناء على بساطته جميع هذه الوظائف. فهو مربع الشكل مساحته ٦٠ × ٧٠ ذراعا، عليه ظلة مرفوعة على أعمدة من جذوع النخيل، وساحة مكشوفة، وجدرانه من اللبن وبه ثلاثة أبواب، وتحيط بجزء من واجهته الغربية حجرات زوجات النبي (ص). وقد وجه المسجد عند بنائه إلى الشمال باتجاه المسجد الأقصى أولى القبلتين، ثم أعيد توجيهه إلى الجنوب باتجاه الكعبة ثاني القبلتين. والمسجد بشكله المعماري البسيط والجميل، فريد ومتميز عن جميع المباني الدينية التي كانت قائمة في جزيرة العرب وبلاد الشام. علما بأن النبي (ص) كان على علم بالمباني الدينية (الكنائس، البيع والأديرة) التي كانت مشيدة في الجزيرة العربية وبلاد الشام. [٤٢] إلا أنه رفض تقليدها أو محاكاتها لتكون العمارة الإسلامية متميزة شأنها شأن الدين الإسلامي. ولذلك فإن تحويل القبلة [٤٣] من القدس إلى مكة جاء استجابة إلهية لرغبة النبي (ص). كذلك فإن النبي (ص) رفض استعمال البوق [٤٤] في الإعلان عن الصلاة لأنه خاص باليهود. كما رفض استعمال الناقوس [٤٥] لأنه خاص بالإعلان عن صلاة النصارى. واستعمل النبي (ص) الأذان للإعلان عن الصلاة ليتميز عن الإعلان للصلاة لدى كل من اليهود والنصارى. ويعد ذلك تأكيد لأصالة العمارة الإسلامية وتميزها.

وربما يكون هناك سبب آخر لتعمد البساطة في تصميم المسجد النبوي – علما أن القرآن الكريم زاخر بالمفاهيم المعمارية وقيمها الجمالية – وهو حرص النبي (ص) على أن لا يطغى الشكل المعماري على وظيفة المسجد في بداية الدعوة الإسلامية من جانب، ولكي لا يصبح التكلف في بناء المساجد سنة متبعة، فترهق المسلمين في تكاليف إنشائها. واليوم يتنافس بعض زعماء المسلمين على التباهي ببناء المساجد التي يبالغون في الإنفاق عليها إلى درجة أن بلغت كلفة بعضها مئات الملايين من الدولارات الأمريكية في الوقت الذي تعج فيه ديار الإسلام بالجياع وفي أمس الحاجة إلى المستشفيات والمدارس.

والمتتبع لتطور بناء المسجد النبوي يرى أن الاتقان والتكلف جاء متأخرا، بعد أن تمكن الدين في قلوب المسلمين وعقولهم. وهذا ما أكده الزركشي[٤٦] عند عرضه لتطور بناء المسجد فذكر أن عمر بن الخطاب (ر) استحدث للبيت الحرام بناء وبنى حوله جدارا وكذلك عثمان بن عفان (ر) زاد في سعته واستحدث الأروقة. أما عبدالله بن الزبير فزاد في اتقانه[٤٧] لا في سعته وجعل فيه أعمدة من الرخام. واستمرت أعمال الزيادة والتحسين حتى يومنا الحاضر.

ولقد تنبه الفقهاء إلى ضرورة أن يلائم التصميم المعماري للمسجد وظيفة الصلاة فحددو أحكام الصلاة وبالذات صلاة الجماعة والجمعة والأعياد وطبقوها على عمارة المساجد فنشأ ما يسمى بأحكام عمارة المساجد أو نظريات عمارة المساجد التي تناولها المعماريون المسلمون وترجموها إلى عناصر وفراغات وأشكال معمارية. وبهذا يكون إعمار المساجد بداية تنظير الفكر المعماري الإسلامي. فإذا ما تأملنا بعض هذه الأحكام (النظريات) لوجدنا أنها مرنة قادرة على التكيف مع مستجدات العلم.

وعلى الرغم من أن العمارة المسجدية بدأت منذ القرن الأول الهجري إلا أن تصميم المسجد النبوي ظل نموذجا يحتذى في العمارة المسجدية. ومن مظاهر تطور العمارة المسجدية بناء المحراب. وقد اهتمت العمارة الإسلامية بتصاميم المحاريب وزيتتها وتوسلت الحجر والرخام[٤٨] والجص والخزف والفسيفاء والخشب وغير ذلك من مواد لتنفيذ العناصر الزخرفية كالمقرنصات وفقرات العقود المتداخلة والأطر والحليات والرسوم الهندسية والتوريقية والكتابية وصور الأشجار والأعمدة والقناديل والصدف. وتكاد المحاريب كلها في تفاصيل بنائها تتميز بزاويتين غائرتين على جانبي المحراب يحتلهما عمودان تزيينيان[٤٩] وقد أقيم المحراب في المسجد ليدل على اتجاه القبلة وليقوم بدور مضخم الصوت للإمام الذي يقوم مواجها له. وقد تتعدد المحاريب في المسجد الواحد لغرض تزييني، أو غاية وظيفية، فيخصص لكل مذهب محراب كما هو الحال في مسجد بني أمية في دمشق[٥٠] ومسجد أحمد بن طولون في مصر.

ومن المعلوم أن المحراب الأول لم يقم أيام الرسول (ص) – حيث يعتقد أن اتجاه القبلة في المسجد النبوي قد عين بعلامة مميزة على الجدار – ولكن في مكان وزمان ما زالا موضع خلاف بين المؤرخين.[٥١] غير أنها أجمعت على أنه متأخر عن عهد الرسول (ص)، محصور بين المساجد الأولى التي أقيمت في القرن الأول للهجرة. فبعض المؤرخين يعده مأخوذا عن المذبح المسيحي وبعضهم يرده إلى الكنيس اليهودي، وغيرهم إلى عرش الملك، وفريق إلى طيقان تماثيل الآلهة والملوك والأمراء والأبطال

اليونانيون والرومان. [٥٢] وهناك رأي يقول أن المحراب إنجاز إسلامي بحت من حيث الشكل المعماري الفريد الذي أخذه ومن حيث المدلول الديني الخاص الذي أعطاه وعفاه. ومهما يكن من أمر، فلا شك أنه محطة رئيسية في طريق الحضارة المعمارية بشكل عام والفن الإسلامي بشكل خاص.

كذلك من مظاهر تطور العمارة المسجدية بناء المقصورة وهي من عناصر المسجد تقام قرب المحراب من خشب ويقال أن عثمان بن عفان (ر) لما أمر بتجديد المسجد النبوي أضاف إليه مقصورة بناها باللبن وفيها فتحات[٥٣] كما يقال أن أول من بنى المقصورة في المسجد هو معاوية بعد أن طعنه خارجي ليلة التاسع عشر من رمضان سنة ٤٠ هـ . وهناك رأي آخر يقول بأن أول مقصورة مسجدية أقيمت أيام مروان بن الحكم حين طعنه اليماني. [٥٤] ثم شاعت في أكثر مساجد السلاطين والولاة وكانت سياجاتهم يحميهم ويبعد عنهم الأخطار. وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوك الموحدين في المغرب العربي فاتخذ هذه المقصورة، وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والأندلس. [٥٥]

كما تعتبر المئذنة إضافة جديدة للعمارة المسجدية. وهي موضع مناداة المسلمين للصلاة خمس مرات في اليوم أيذانا بمواقيت الصلاة وسميت في المغرب صومعة أو منارة. ولم تبن للمسجد النبوي في عهد الرسول (ص) عند بنائه مئذنة وانما يروى أن مؤذن الرسول (ص) بلال كان يؤذن على مرتفع من الأرض أو ينادي للصلاة على سطح الجامع أو فوق بناء مجاور. [٥٦] وهناك اعتقاد أن أول مئذنة بنيت بالحجارة في البصرة من قبل زياد بن أبيه عامل معاوية على العراق عا ٤٥هـ / ٦٦٥م تلى ذلك بناء أربع صوامع في أركان جامع عمرو بن العاص في مدينة الفسطاط بمصر عام ٥٣ هـ / ٦٧٢م بهمة مسلمة من مخلد عامل معاوية ويزيد ومعاوية الثاني على مصر. [٥٧] كما قام ابن مخلد بتشييد المنارات في معظم مساجد الفسطاط. أما مآذن المسجد الأموي الذي بناه الوليد بن عبدالملك ما بين عامي ٧٠٦-٧١٥م فمتأخرة عن بناء المسجد نفسه. ذلك أن الوليد أبقى على الأبراج الرومانية والمسيحية ورفع بعضها لتصبح في مستوى واحد. وقد بقيت المئذنة الأموية المربعة المسقط لوقت طويل نموذجا يحتذى في المشرق وأن تهيمن على أشكال كل المآذن المغربية والأنلسية على مر العصور. وتقليد مئذنة المسجد الجامع في القيروان والتي يظن حتى الآن أنها أقدم مئذنة في تاريخ العمارة الإسلامية وما زالت محافظة على الشكل الأول بالرغم من التعديلات التي طرأت عليها. أقامها عقبة بن نافع خلال تأسيسه جامع ومدينة القيروان بتونس ما بين ٥٠-٥٥ هـ / ٦٧٠-٦٧٤م.

## المدلولات الفكرية والاجتماعية :

إن طبيعة الاستقرار فرضت نمطا من العلاقات الإجتماعية التي حددها الدين الإسلامي الأمر الذي ترتب عليه وجود المساكن وهو الشرط الأول للإجتماع. ولقد حظي المسكن بإهتمام الدين الإسلامي فالقرآن جعل لها حرمة ونص على دخول البيوت من أبوابها كما في قوله تعالى : "وليس البر بأن يأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون" . [٥٨] وفي الحديث الشريف شبه المسكن بالجنة كما في قوله (ص) :"جنة الرجل داره" . أما عمر بن الخطاب(ر) فقد أعطى المسكن بعدا حضريا يخرج عن نطاق المفهوم الإجتماعي الأسري إلى مفهوم الإسكان الجماعي وإنشاء المدن. ففي تعليماته لبناء مدينتي البصرة والكوفة[٥٩] في العراق، والفسطاط في مصر، أمر أن يكون الموقع قريب من الماء والمرعى، وأوصى: بأن يكون عرض الشوارع الرئيسية أربعين ذراعا (٤، ٢٢م) [٦٠] والمتوسطة أو الثانوية عشرين ذراعا (٢، ١١م) والأزقة سبعة أذرع. وأن تكون دور الناس متلاصقة ولا يزيد عدد الغرف في الدار الواحدة عن ثلاث وأن لا يرتفع البناء فيها عن طابق واحد وأوضح أن تتوسط كل محله رحبة أو ساحة طول ضلعها ستون ذراعا وأن تكون خطط القبائل حول المسجد ودار الإمارة غير متصلة فيها. [٦١]

سرايا وكالة الغوري المملوكي
القاهرة - مصر

مما سبق يتضح أن الخليفة الراشدي الثاني وضع أسس ونضريات التخطيط العمراني والتصميم الحضري للمدينة العربية فربط بين العامل البشري والعامل الإقتصادي والمعاني . ولقد تطورت الدراسات الإجتماعية الخاصة بالعمران وبتأثير المكان على المسكن ، فعرض لها ابن سينا[٦٢] باسهاب فحدد أنواع المساكن تبعا لموقعها الجغرافي وتكلم عن خصائصها البيئية وكيفية اختبارها وتهيئتها ، وركز على

ضرورة توجيه الشبابيك والأبواب شرقية شمالية لتمكن الرياح الشرقية من مداخلة الأبنية وتمكين الشمس من الوصول إلى كل موضع فيها .[٦٣] كما عرض أبن خلدون للعمران، فبين أن البناء واختطاط المنازل والمدن انما هو من منازع الحضارة، وأن طبيعة الاجتماع والاستقرار تفرض مراعاة "دفع المضار وجلب المنافع وتسهيل المرافق".[٦٤] وبهذا يكون ابن خلدون قد وضع نظريات التخطيط الحضري وعالج موضوع إنشاء المدن من منظور بيئي استراتيجي بمستوياته الأمنية والاقتصادية والاجتماعية. .

وفي الحقيقة فإن دراسات العمارة الإسلامية لم تقتصر على اراء ونظريات الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب (ر) وابن سيناء وابن خلدون، ولكنها شغلت حيزا مهما في الفقه الإسلامي، فعرض كثير من الفقهاء لأحكام البناء وأفردوا لها الكتب[٦٥] ويعتبر كتاب ابن الرومي المتوفى عام ٧٣٤هـ:"الاعلان في أحكام البنيان" من أفضل ما كتب في هذا المجال لكون المؤلف نفسه بناء. ولقد أكد هذا الكتاب على أهم خصوصيات العمارة الإسلامية ومفاهيمها التربوية، البيئية، الصحية والأمنية. وللتعرف على أهمية هذا الكتاب يمكن التعرض لمفهومي نفي الضرر والخصوصية ومدلولاتها الاجتماعية والحضارية كما ناقشها ابن الرومي:

ذكر ابن الرومي أن الضرر العمراني للمجتمع ينتج من الأسباب التالية: الدخان، الرائحة، الضوضاء، سوء استعمال الطريق والنظر من الشبابيك. فالضرر من الدخان[٦٦] ينقسم إلى قسمين: الأول دخان التنانير والمطابخ وهذا لا يمكن منعه لمسيس حاجة المجتمع إلى انتاجه، والثاني دخان الحمامات والأفران، وهذا يمنع لإلحاقه الضرر بالسكان فيجب أن تشيد هذه المرافق خارج المناطق السكنية لتفادي إحداث الضرر. وكذلك الأمر بالنسبة للرائحة[٦٧] فيمنع إنشاء مدابغ الجلود داخل المنازل لما تسببه رائحته النتنة المنبعثة من عملية الدباغة لسكان المنازل المجاورة، كما يمنع إنشاء المجاري المكشوفة لما تسببه من رائحة كريهة. وكذلك الأمر بالنسبة للصوت فلا يجوز ممارسة أعمال داخل الدور تسبب الضوضاء لما ينتج عن ذلك من إزعاج لراحة سكان المنازل المجاورة أو لما تحدثه من إهتزازات لهذه المنازل، إن كان مصدر الضوضاء الطواحين أو ما شابهها، الأمر الذي ربما يترتب عليه التسبب بإنهيارها، كما يمنع بروز البناء[٦٨] على الطريق النافذ أو غير النافذ، لما يحدثه من إعتداء على حرم الطريق وإعاقة الحركة فيها.

وهذه العناصر بالرغم مما تحويه من مضامين إجتماعية تتمثل في توفير أسباب الراحة والأمان للإنسان في مجتمعه، إلا أنها وضحت لنا مفهوم إستعمالات الأراضي

في الفكر المعماري الإسلامي، فمنها ما هو خاص بالسكن ومنها ما هو خاص بالحرف والصناعات ومنها ما هو خاص بالأسواق وطرق المواصلات.

أما ضرر النظر من الشبابيك فيترتب عليه الاعتداء على خصوصية الأسرة وإنهيار القيم والأخلاق والسلوك الإجتماعي، فجاء نفي حدوثه أكثر إلحاحا من أي عنصر آخر. وتم ذلك بوسائل معمارية، حققت مفهوم الخصوصية للأسرة المسلمة كما حققت مفهوم الوقاية من الإنهيار الإجتماعي، لمن يمكن إغرائهم بالنظر إلى بيوت وعورات غيرهم من خلال شبابيك. ولذلك حددت نسبة إرتفاع النوافذ في الحالات التي لا تقع بين المنازل المجاورة حسب رأي الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب (ر)، يجب ألا يقل إرتفاع قاعدتها عن إرتفاع قامة لرجل واقف على السرير، حتى لا يتمكن أحد من سكان البيت الذي فيه الشبابيك من النظر إلى عورات جيرانهم. أما إذا كانت الشبابيك مطلة على الطريق(٩٦) فيجب أن لا يقل إرتفاع قاعدتها عن مستوى النظر (١٫٩٨م) الأمر الذي تعذر معه النظر داخل البيوت وكشف عورات سكانها.

وبالتزام العمارة الإسلامية بهذه الشروط تحقق مفهومي الخصوصية للسكان والوقاية لمستخدمي الطريق، فإن عدم تمكينهم من النظر لبويت الناس يحمي البيوت من ضعاف النفوس ويجنبهم الوقوع في الخطأ ويحفظ للمجتمع قيمه. وبذلك يتضح مدى إسهام العمارة الإسلامية في الحفاظ على القيم الإجتماعية والأخلاقية لمجتمع الإسلام.

**المدلولات الفنية:**

العمارة والفن ظاهرتان حضاريتان متلازمتان. فالعمل المعماري في حد ذاته عمل فني كان وما زال مسرحا للإبداع الفني. والفن الإسلامي خضع لمعايير شعورية وفكرية وفلسفية فرضها الدين الإسلامي ونظامه الإجتماعي. ولقد كان الفن الإسلامي وما زال أداة تخدم مفهوم التوحيد من خلال إستعمال تقنية الوصف في تصوير عظمة خلق الله. فجاءت الصورة في القرآن الكريم معبرة عن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني وطبيعته البشرية وسلوكه الإجتماعي.

وقد تجلى الفن الإسلامي في البناء وصناعة الفخار والفسيفساء والسجاد والخط والنسيج والمعادن وتزيين المصاحف وزخرفتها وتصوير المخطوطات وتزيينها وزخرفة طاولات الكتابة والأبواب والأبراج والبساتين والحمامات والحصون والمقابر والمآذن والمساجد والأسبلة والأعمدة وتيجانها والأواوين والأدوات والألبسة وتوسل في هذا السبيل الحجر الأسود والألوان والمواد الأخرى كالعاج والبلور والجص والخزف

والحجارة الكريمة ورقائق الذهب والفضة والمعادن الأخرى "معربا" و "مقرنصا" و "مموها".(٧٠)

لقد كان بيت الرسول (ص) في المدينة نموذجا للبساطة والتواضع والتقشف ومثالا للوظيفة البحتة. وفي القرن الأول للهجرة (٧م) تعرف المسلمون في البلاد المفتوحة على حضارتين معماريتين راقيتين، غنيتين بالمواد والعناصر، كالحجر والفسيفساء في الشام والآجر والميناء في بلاد ما بين النهرين. لذلك فإن الزهد الذي كان سائدا في أبنية صدر الإسلام في العهدين النبوي والرشدي، ما لبث أن اختفى سريعا مع قيام الدولة الأموية وأبنيتها الحجرية العظيمة بعقودها وعواميدها ومرمرها وفسيفسائها؛ حتى تميزت أكثر مساجدها بسقوفها السنامية (الجلونية) ومأذنها المربعة المسقط.(٧١)

لم تتأثر العمارة الأموية بالشامية فقط بل بالساسانية أيضا وحتى بالمصرية التي تظهر مجتمعة في قصر المشتى في بادية الأردن. ومن أروع نماذج العمارة الأموية وآثارها بقي المسجد الأموي وقبة الصخرة وقصر الحير الغربي والشرقي والمشتى وقصر عمره في الشام. أما في المغرب فبقي مسجد القيروان بتونس والمسجد الجامع في قرطبة. ومن أشهر النماذج العباسية: قصر الأخيضر ومسجد سامراء ومئذنته الملوية الشهيرة ومسجد ابن طولون في القاهرة الأثر العراقي المقام في أرض مصر. وقد حل التأثير الفارسي في العمارة العباسية مكان البيزنطي. والذي انتقل عبر الفن السامرائي لا في مصر وحدها بل إلى البحرين ونيسابور أيضا.(٧٢) وصارت قصور الخلفاء المسلمين أشبه ما تكون ببلاطات ملوك الفرس بقاعات العرض الواسعة وبالإيوان المركزي، المقبب، وأحيانا ألحقت أواوين أربعة بالكبير لاستقبال العامة من الناس. ولم يقف الإبداع بل استمر مع السلاجقة والفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين وخلفاء الأندلس وسلاطين شمال أفريقيا كالأغالبة والأدارسة والمرابطين والموحدين وغيرهم ممن حكم هنا وهناك مستقلا عن السلطة المركزية للخلافة أو مغتصبا منها السلطان والمبادرة معمرا ومطورا ومزخرفا، منضويا دائما تحت لواء الطابع الإسلامي المتميز بوحدته مهما اختلف المكان و الزمان.

ومما يجدر ذكره أنه على الرغم من انتشار الأثر العباسي في أصقاع بعيدة إلا أنه لم يصل إلى أسبانيا التي بقيت وفيه لتراثها الأموي المعماري الحي.(٧٣)

منظر لمقابر القاهرة مأخوذ من مئذنة برقوق بالخانكة – القاهرة – مصر.

وتعتبر مخططات القصور الإسلامية متشابهة، مسقطها مربع، يحيط به سور تعلوه أبراج ركنية وضلعية، دائرية أو نصف دائرية، لها مدخل واحد يوصل إلى فناء مكشوف تحيط به مل المرافق كالأروقة والمساكن والاصطبلات والسلالم والأحواض التي تحتل أحيانا وسط الصحن. وقد تميزت تلك الأبنية بالاتساع والرحابة، وكادت تقارب المدن بمقاساتها. فقد بلغت مساحة قصر الزهراء خمسة وعشرين ألف متر مربع. وقد ارتبط كل قصر باسم خليفة، وكان الفظة تعني الأبنية العظيمة التي يقيمها الخلفاء فقط. فقصر الخضراء الذي لم يبق منه أي أثر، بناه في دمشق معاوية في القرن الأول للهجرة (السابع الميلادي). وفي القرن الثاني بنى هشام في بادية الشام قصر الحير الغربي وبنى الوليد في بادية الأردن "المشتى". وفي السنة الخامسة والعشرين بعد السبعمئة للهجرة (١٣٣٣م)[٧٤] وهم آخر الحكام العرب في الأندلس الذين طردوا منها عام ١٤٩٢م وبقيت آثارهم العمرانية خير شاهد على عظمة العمارة الإسلامية وتميز فنها. وقد انتشرت تلك القصور في مدن المسلمين وبواديها على مر العصور وما زالت موضع اعجاب ودراسة ومعينا لا ينضب للفن والعمارة على حد سواء.

ويصف المقريزي في خططه القصر المعزي الذي بناه جهر الصقلي مولى المعز لدين الله الفاطمي حينما خطط مدينة القاهرة وبنى بها هذها القصر والجامع الأزهر في ٣٥٨هـ/٩٦٨م قائلا:"وهذا القصر كان دار الخلافة وبه سكن الخلفاء إلى آخر أيامهم... ولما أخذه صلاح الدين، وأخرج من كان به، كان فيه اثنا عشر ألف نسمة".[٧٥]

ويعتبر قصر الخضراء الذي شيده معاوية في دمشق أقدم القصور التي عرفتها العمارة الإسلامية فقد شُيّد وفقا لطراز العمارة الرومانية واستخدمت بداخله النقوش الساسانية. كذلك جلب للعمل في هذا القصر فرقة فارسية موسيقية وفرقة رقص رومانية. وتعتبر هذه التجربة العمرانية الأولى من نوعها في الدولة الإسلامية للإستفادة من تجارب الأمم الأخرى العمرانية وتأثيرها ايجابيا على العمارة الإسلامية من حيث التصميم والتقنية.

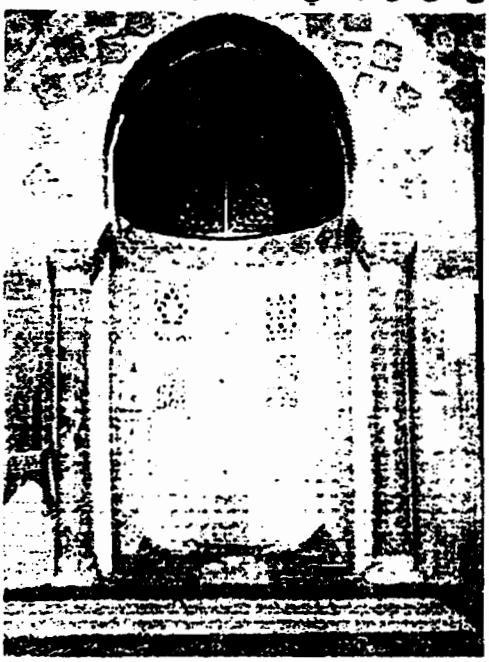

وكذلك اهتمت العمارة الإسلامية باستخدام المسقية وهي حوض صغير تتوسطه نافورة. وكانت الفسقية تقام في صحن المسجد والمدرسة والضريح وايوان البيت والقصر والخان وساحة الحي ووسط الحديقة. وكانت فساقي البيوت الشامية والعراقية والمصرية والمملوكية خاصة لا تقل أناقة في المظهر ولا دقة في الصنع ولا محبة للماء عن أخواتها المغربيات والأندلسيات[٧٦] ويصف المقريزي في خططه إلى أهمية الفسقية في المباني والقصور قائلا:"...وفي كل محلة من محلات القصر[٧٧] فسقية مملوءة بالماء، خيفة من حدوث حريق في الليل"[٧٨]

المدنية

**الخاتمة:**

نستطيع أن نستنتج مما سبق أن العمارة الإسلامية ظاهرة حضارية ذات أسس وقواعد فكرية ومضامين أخلاقية واجتماعية وفنية وقد تميز فكرها بثلاثة جوانب:

١- نظري تربوي معني بدراسة الظاهرة وتطورها فكريا.
٢- عملي تطبيقي يخضع في ممارسته لقواعد وأحكام وقوانين النظام الإجتماعي الإسلامي، ويهدف في تطبيقه إلى المحافظة على طبيعة هذا النظام.
٣- فني أثري الدراسات المعمارية نظريا وعمليا بالمفاهيم والقيم الجمالية. وعلى الرغم من أن العمارة الإسلامية تأثرت في بداياتها بالعمارة الرومانية والبيزنطية

والساسانية إلا أنها بعد اكتمال شخصيتها أصبح لها تأثير واضح على العمارة الأوروبية بشكل عام وأسبانيا بشكل خاص. فقد كانت اسبانيا هي المدرسة الفنية الإسلامية للعمارة والزخرفة كما كانت أيضا لشتى العلوم والفنون الأخرى لكل بلدان أوروبا، حيث كان المهندسون المعماريون والمزخرفون يقصدونها لمشاهدة ودراسة روائع الفن الإسلامي، وبخاصة مدينة قرطبة التي سماها الأوروبيون أنفسهم جوهرة العالم فقد كانت ذات طابع إسلامي فريد في نوعه، بها القصور والمساجد والأسواق والحمامات والطرق الطويلة ذات الإضاءة الصناعية. ولا تزال هناك بعض الكنائس عليها نقوش إسلامية تعلوها عبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" بالخط الكوفي الجميل.

وقد ذكر جوستاف لوبون في كتابه عن حضارة العرب، أن مسيو لوفون مان، وهو الحجة في شؤون المعمار، قال:"إن تأثير العرب واضح في كثير من الكنائس الفرنسية مثل كنيسة مدينة ماغلون(١١٧٨م) التي كانت ذات صلة بالشرق وكنيسة كانده".(٧٩) ويقول فياردو:"إن مهندسين من العرب استخدموا في إنشاء كنيسة نوتردام في باريس فأدخلوا فيها الكثير من ألوان الفن والنقش والزخرفة العربية".(٨٠) وضمن حركة الاستشراق الفني قام العامل والفنان الانجليزي Edward W. Lane بزيارتين إلى مصر خلال الفترة ما بين ١٨٢٥ – ١٨٣٥م، أنجز في زيارته الثانية كتابا تضمن ١٠٤ رسما من عمله، تحت عنوان Manners & Customs of Modern Egyptians قال فيه: "ويبرع المصريون على الأكثر في فن العمارة، فنجد أجمل نماذج العمارة العربية في العاصمة المصرية وضواحيها، وليست المساجد والأبنية العامة الأخرى وحدها هي التي تستحق الاعتبار لعظمتها وجمالها، ولكن الكثير من المساجد الخاصة أيضا تثير الاعجاب، ولا سيما هيئتها الداخلية وزخرفها. على أن هذا الفن كأغلب الفنون الأخرى انحط كثيرا في السنوات الأخيرة، فقد أخذ المصريون عن الأتراك طرازا جديدا ساذج الشكل، بعضه شرقي وبعضه أوروبي وفضلوه على العربي. وتتم الأبنية ذات الطراز القديم أبوابها وسقوفها – عن ذوق فريد".(٨١)

إن هذا التراث الضخم الذي خلفته العمارة الإسلامية أوشك على الإندثار ولم يبق منه إلا العمارة المسجدية أما باقي الجوانب العمرانية للعمارة الإسلامية من مساكن وأسواق ومستشفيات وقصور فقد انطوت تحت تأثير العمارة الغربية فضاعت الهوية العمرانية الإسلامية كما ضاعت الهويات الأخرى نتيجة لهجمة الاستعمار الجديد الشرسة واستسلام المجتمع العربي والإسلامي لها وسيكمل عصر العولمة ما تبقى من أثر لجوهر العروبة والإسلام ولن تبقى إلا الأطلال لتكون خير شاهد على ضياع مجد تليد.

**الهوامش:**

١- الآية ٦٠ من سورة هود
٢- الآية ٦١ من سورة هود
٣- الخوارزمي، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الجزء الثاني، ص٢٧٨
٤- نفسه
٥- ابن خلدون، المقدمة، ص٤٠٦
٦- مجموعة الشعوب التي اعتنقت الإسلام من غير العرب كالفرس، الروم، الهنود، القوقاز
٧- الآية ١٣ من سورة الحجرات
٨- الآية ٣٠ من سورة البقرة
٩- الآية ٣٦ من سورة البقرة
١٠- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ج١، ص١٣-١٥، النيسابوري: قصص الأنبياء، ص٥٤-٦٠
١١- كما ورد في قوله تعالى:"فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فأسلك فيها من كل زوجين اثنين..." والمقصود بالزوجين هنا هو كل صنف من الحيوان. الاية ٢٧ من سورة المؤمنون.
١٢- المقصود هنا الشعوب السامية العربية التي سكنت الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق والتي منها : العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة - لمزيد من التفاصيل انظر: د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ج١، ص١٣-٢٥٤،
أيضا، محمد عزه دروزه: تاريخ الجنس العربي، المكتبة العصرية، بيروت، ج١، ص١٦-٢٠
١٣- الساميون هم من القبائل التي انزاحت من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها في منتصف القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد.
١٤- الآية ٧٤ من سورة الأعراف،
انظر الخوارزمي، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري: المرجع السابق، ص٩٠.
١٥- ثمود إحدى قبائل العرب البائدة كانت مساكنها في شمال غربي الحجاز وتعرف بمدينة الحجر أو مدائن صالح. انظر الطبري: تفسير الطبري، دار المعرفة، بيروت، ج٨، ص١٣١

١٦- الطبري: المرجع السابق، ج١٣، ص١٦٠
١٧- الآية ٢٣ من سورة النمل
١٨- الآية ٤١، ٤٢ من سورة النمل
١٩- الآية ١٤ من سورة سبأ
٢٠- ان موت سليمان كان قبل سنة من معرفة الجن بوفاته الحقيقية بعد أن نخر السوس عصاته وسقط. والمقصود هنا نفى معرفة الجن بالغيب. لأنهم لو عرفوا الغيب لما استمروا بالعمل سنة كاملة بعد وفاة سيدنا سليمان. واستمرار العمل أثناء موت سليمان يعني في حد ذاته أن العمل لم يكتمل كما توضح الآية المذكورة بشك جلي.
٢١- انظر الآية ٦٧ من سورة آل عمران:"ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما و ما كان من المشركين"
٢٢- الآية ٢٧ من سورة إبراهيم
٢٣- الآية ٩٦ من سورة آل عمران
٢٤- ابن الكلبي: الأصنام، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥، ص١٩-٤٥
٢٥- نفسه
٢٦- نفسه
٢٧- الأزرقي: أخبار مكة، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٣
٢٨- الزركشي، اعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي الطبعة الثانية، وزترة الأوقاف، القاهرة ١٩٨٢
٢٩- شمس الدين السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق الدكتور أحمد رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣
٣٠- الآيات ٦-٨ من سورة الفجر
٣١- الآية ١٢٥ من سورة البقرة
٣٢- الآية ٩٦ من سورة آل عمران
٣٣- الآية ١٢٧ من سورة البقرة
٣٤- الآيتان ٢٤، ٢٥ من سورة الأحقاف
٣٥- حبيب زيات: الديارات النصرانية في الإسلام، مجلة الشرق، تموز-أيلول ١٩٣٨م، بيروت، ص٢٩١-٤١٧
٣٦- نفسه ص ٢٩٣

٣٧- ورد اسم كتاب أبو معشر المنجم المعروف بالألوف في (ج٢ ص ٢٥٢) من كتاب المسعودي، مروج الذهب، كما ورد اسم كتاب ابن المازيار مختصر الألوف في المكان نفسه من في المكان نفسه من مروج الذهب. كما عرض البيروني في كتابه: الآثار الباقية من القرون الخالية ص ٢٠٧ للمباني لادينية للحضارات المنقرضة نقلها من كتاب أسماه بيوت العبادات ونسبه لأبي معشر البلخي.

٣٨- عبداللطيف البغدادي: الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق ١٩٨٣م.

٣٩- قضى البيروني أربعين عاما في الهند درس خلالها علومهم وفنونهم وبعض لغاتهم.

٤٠- الحسن بن يعقوب الهمداني: الإكليل، ج١،ج٢، تحقيق القاضي الأكوع الحوالي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٧، ١٩٨٠م.

٤١- الزركشي: اعلام الساجد بأحكام المساجد

٤٢- ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٨٥، ج٢، ٢٢٩-٢٣٠، ٢٨٦-٢٨٩

٤٣- الآية ١٤٤ من سورة البقرة:"قد نرى تقلب وجهك في السماء فهو قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم قولوا وجوهكم شطره".

٤٤- البوق: الوسيلة التي يدعو بها اليهود إلى صلاتهم.

٤٥- الناقوس: الوسيلة التي يدعو بها النصارى إلى صلاتهم

٤٦- الزركشي: المرجع السابق من ٢٦٦-٢٧٥

٤٧- نفسه ص٥٧

٤٨- محراب الخصكي الموجود في المتحف العراقي والذي يعود تاريخه للقرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، حفر من قطعة واحدة من الرخام.

٤٩- محاريب: قبة الصخرة في القدس، الأموي في دمشق، قصر المشتى في الأردن.

٥٠- ابن بطوطة: رحلة، ص٩٠

٥١- د. عبدالرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، جروس برس، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٣٥٣

٥٢- نفسه

٥٣- نفسه

٥٤- ابن خلدون: مقدمة، ص١٨٨

٥٥- نفسه، ص١٨٩
٥٦- د. عبدالرحيم غالب: المرجع السابق، ص٣٣٣-٣٤٦
٥٧- عالم المعرفة، عدد ٣٧ يناير ١٩٨١م
٥٨- الآية ١٨٩ من سورة البقرة
٥٩- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ج٣ ص ٥٩٠-٥٩٧
٦٠- طول الذراع ٥٦ر٥ سم
٦١- عيسى سلمان: العمارة العربية الإسلامية في العراق. ص٤٧
٦٢- ابن سينا: القانون في الطب، تحقيق ادوار القش، مؤسسة عز الدين للطباعة، بيروت، ١٩٨٧م، ج١، ص١١٢٤-١١٢٩،
أيضا ابن خلدون، المقدمة، ص٨٣-٩١
٦٣- ابن سينا: المرجع السابق، ص١٢٨
٦٤- ابن خلدون: المقدمة، ص ٣٤٧
٦٥- وردت هذه الكتب في رسالة الماجستير المقدمة من الباحث: عبدالرحمن بن صالح الأطرم وموضوعها تحقيق كتاب: الإعلان بأحكام البنيان: لابن الرومي، والمقدمة إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، عام ١٤٠٣هـ
٦٦- ابن الرومي: نفسه، ص٩٧-١٠٣
٦٧- نفسه، ص١٠٤-١٠٦، ١١٧
٦٨- نفسه ص١٠٧-١١٦
٦٩- نفسه ص١٢٣-١٣٩
٧٠- د. عبدالرحيم غالب: المرجع السابق، ص ٣٠٦
٧١- نفسه ص ٢٨٨
٧٢- نفسه ص ٢٩٢
٧٣- نفسه
٧٤- نفسه ص ٣١٦
٧٥- المقريزي: الخطط، الأول ص ٣٨٤

٧٦- د. عبدالرحيم غالب: المرجع السابق، ص ٣٠٠
٧٧- قصر المعز لدين الله الفاطمي في القاهرة
٧٨- المقريزي: الخطط، الأول، ص ٣٨٧
٧٩- إبراهيم الكردي: من العلماء العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤م ص٢٥
٨٠- نفسه
٨١- ادوارد وليم لين: المصريون المحدثون: شمائلهم وعاداتهم، دار النشر للجامعات، ترجمة عدلي طاهر نور، القاهرة ١٩٧٥م، ص٢٧١.